المفهوم اللغويّ
والاصطلاحيّ للسيمياء عربيّا
بحث
في المصطلح والمصطلح المجاور
(مقاربة فيلولوجية)

Linguistic and Termological Arabic Meaning for Semiotics Term and Adjacent Term
(Philological Proximity)

م. د. أحمد علي محمد
جامعة بغداد / كلية الآداب
قسم اللغة العربية

Lecturer Dr. Ahmed Ali Mohammed
University of Baghdad
College of Arts, Arabic Department

... ملخص البحث ...

يحاول هذا البحث أن يقدّم تأصيلاً علمياً لمصطلح السيمياء عبر المنظور الفيلولوجي، محاكماً الآراء الذاهبة إلى أجنبية جذر هذا المصطلح كالمقولة الذاهبة إلى عبرانيته أو غير ذلك، لكننا من خلال البحث في المتون المعجمية العربية القديمة، والمتون المجاورة في علم العربية وجدنا أن هذا المصطلح جارٍ على نسق مصطلحات عربية من جهة الصياغة كـ (الكيمياء) و (الهيمياء)، فضلاً عن حضوره في ما يقاربه من مفاهيم معرفية ولاسيما مفهوم علم الدلالة الغربي.

لذا أثبت هذا البحث أن (السيمياء) مصطلح عربي من حيث الصياغة، أما من حيث المضمون فهو ذو دلالة مفاهيمية غير بعيدة عن مراد المحدثين.

...Abstract...

The present research paper endeavours to trace the term semiotics in the light of philology and integrates the opinions that buttress the foreign root of the term and describe it as Christian and so forth. But after delving into the old Arabic dictionaries and the adjacent texts of the Arabics, we do find that such a term is very common as many Arabic concepts in terms of structure; for instance, Alkami, Alheimia, in time, it is found in the Western science of semantics, so the study proves that Al-Seimia is an Arabic concept in terms of structure, yet in terms of content it has a knowledge reference that is not far from the desire of the innovators.

Most of the Arabic sources, authenticated linguistic dictionaries, explicatory references, old poetic tests and Quranic Iyats certify that semantics is a genuine Arabic utterance and never being driven , it comes from one linguistic root; Wasma from the stem Wasam, then place inversion occurs to be Suma, then the letter waw turns to be ya equal to the diacritic before it and gets merged, so it becomes Sweima, that is why the linguistic sources and books of explication and Hadeeth reach consensus about. Yet the reference we do find in the utterance is almost much the same; sign.

... مدخل ...

تؤكد أغلب المصادر العربيّة والمعجمات اللغويّة الموثّقة ومراجع التفسير والنصوص الشعريّة القديمة فضلا عن الآيات القرآنيّة، أنّ (سيمياء) لفظ عربيّ أصيل غير مولّد، وما يرد له من صور لفظيّة متعددة فهو مشتقّ من جذر لغويّ واحد هو (وسمى)، من الجذر (وسم)، وقد وقع قلب مكانيّ فصار (سومى)، ثم انقلبت الواو ياءً لتعادل حركة ما قبلها وتجانسها، فصارت (سيما)، وهذا ما تكاد تجمع عليه المراجع اللغويّة وكتب التفسير والحديث، والدلالة التي نجدها في اللفظ على اختلاف صوره واحدة غالبا، وهي العلامة.

ولعلّ مقاربة فيلولوجيّة في كتب التراث العربيّ من شأنها أن تؤكّد للباحث أنّ (سيمياء) أو(سيماء) أو(سيما) تعني العلامة، وهي مشتقة من الفعل (سام) الذي هو في الأصل (سوم) مقلوب (وَسَمَ)، والأرجح أنّ وزن (سيما) الصرفيّ يأتي على (عِفْلى)، وصورة نطقها (فِعْلى)، فـ (سِمَةٌ)، في أصلها (وِسْمَةٌ). والعرب يوردونها بالقصر (سِيمَى)، وبالمد (سيما)، مسهلة من الهمزة، وقد ينبرونها مع المدّ فيقولون (سيماء) و(سيمياء).

وسَوَّمَ الرجل إذا جَعَلَ عليه سمة أو وضع على نفسه علامة تميّزه من سواه، والقلب الحاصل في حروف الكلمة إنّما هو للتخفيف، وقلب عين الكلمة وارد في اللغة العربيّة إن لم يكن هو الأكثر شيوعا، فالأصل في قام (قَوَمَ) وفي ساد (سَوَدَ) وفي سيّد (سَيْوِدْ)، ولا نجد فعلا مجرّدا من (سَوَمَ) إلا ما جاء مضعّفا كما في قولهم:

زيدٌ سَوَّمَ فرسَهُ، أي: جعل عليها السِّمة أو السيمة، وقيل: الخيل المسوّمة هي التي عليها (السيما) و(السومةُ)، وهي العلامةُ، وتجمع على (سِيَم) وهي العلامات التي تُجعل على أصواف الغنم[١]. و(سيما) في الأَصل (وِسْمى) فحوّلت الواو من موضع الفاء فوضعت في موضع العين، كما قالوا ما أَطْيَبَهُ وأَيْطبَه، فصار (سِوْمى) وجعلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها[٢].

وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في عدّة مواضع؛ ستة منها بصيغة (سيما)، وهي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾[٣]، وفي قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[٤]، وكذلك في قوله عزّ من قائل: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾[٥]، وفي قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾[٦]، وفي قوله تبارك اسمه: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[٧]، وأخيرا في قوله سبحانه: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[٨].

وجاء في التفسير: «أنّ السيما هي العلامة التي يعرف بها الشيء، وأصله الارتفاع، لأنّه علامة رفعت للظهور، ومنه السّوم في البيع، وهو الزيادة في مقدار الثمن للارتفاع فيه عن الحدود، ومنه سوم الخسف للرفع فيه بتحميل ما يشقّ، ومنه سوم الماشية إرسالها في المرعى»[٩]. وورد أيضا «أن (سيما) على زنة (فعلى) من سام إبله، أي يسومها إذا أرسلها في المرعى معلّمة، وقيل إنّ وزنه (عفلى)، من (وسمت) فقلبت، كما قالوا: له جاه في الناس وأصله وجه، وكما قالوا اضمحلّ وامضحلّ، وفيه ثلاث لغات، سيما وسيماء بالقصر والمدّ وسيمياء على زنة كبرياء»[١٠]. وربما كانت (قريش) تميل إلى المدّ والتسهيل كما جاء في القرآن الكريم، ومثل القرشيين

أغلب العرب، بيد أن قسما قليلا منهم يميل إلى المدّ والنبر ومن هؤلاء (ثقيف) وبعض (أسد)[١١].

وجاء في التفسير أيضا أنّ سيماهم الواردة في الآية: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ تعني بعلاماتهم، وقيل بأمارات الخزي[١٢]. ووردت بصيغة (مسوّمة) في موضعين من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[١٣]، وفي قوله: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[١٤]، والمسوّمة من السيماء، وهي العلامة، ومنه السّائمة وهي المرسلة من الإبل، تختلط في المرعى فيجعل عليها السيماء لتمييزها، والمسوّمة من كلّ شيء ما جعل عليها علامة تدلّ عليها، والحجارة المسوّمة عليها سيماء لا تشاكل حجارة الأرض[١٥].

وإذا كان استخدام السيمياء واردا بصيغ محدودة في القرآن الكريم، فإنّنا نجد الشعر العربيّ حافلا بالصّيغ المختلفة لها، ومن ذلك قول الشاعر[١٦]:

غُـلامٌ رمـاه اللهُ بالحسـنِ يافعا   لَهُ سـيمياءٌ لا تَشُقُّ على البصر
كَأنَّ الثُّرَيا عُلِّقَتْ فوقَ نحرِهِ وفي   جيدِهِ الشعرَى وفي وجهه القمر

ومثله قول الشاعر[١٧]:

ولهـم سِيـمـا، إذا تُـبـصرهُـمْ،   بيّـنـت ريبــة مـن كـان سـألْ

وكذلك قول الشاعر[١٨]:

وتحـمـلـه مـلائـكـة شــداد   مـلائـكـة الإلـــه مـسـوّمـيـنـا

ومنه قول الشاعر[١٩]:

فلم ينتبه حتى أحـاط بظهره   حساب وسرب كالجراد يسوم

وفي هذه الأبيات أو في مانصادفه في الحديث أو الأثر النثريّ العربيّ تأتي اشتقاقات (سوم) ومقلوباتها للدلالة على معنى واحد هو العلامة، أو ما يمكن أن يؤدي معناها في اللغة، وهذا ما يؤكّد لنا أصالة هذه المفردة في اللغة العربيّة، بيد أننا لا نعدم أن نجد من يبحث لها عن أصل في لغات أخرى ربّما تكون سابقة على العربيّة[٢٠].

ولعلّ من يذهب إلى كون مفردة (سيمياء) أو اشتقاقاتها الأخرى ليست عربيّة، إنما يلتمس حجّته منطلقا من متون بعض المعجمات اللغويّة والاصطلاحيّة التي تذهب إلى أنّ (سيمياء) عبرانيّة الأصل، وأنّها مكوّنة من (سيم) التي تعني (اسم) العربيّة، و (يه) التي تعني لفظ الجلالة أو (الله)[٢١]، وكذلك نجد من يرى أنّ أصل سيمياء مشترك بين العربيّة والسيريانيّة بتوسّط لغة ثالثة هي اليونانيّة، وهي (السيمياء) بهذا المعنى مشتقّة من اللفظ اليونانيّ نقلا عن اللفظ السيريانيّ، وتدلّ على العلامات، أو حروف الهجاء (...)، وتؤدى الكلمة باطّراد في المعاجم السيريانيّة ـ العربيّة بالكلمة العربيّة علامة[٢٢].

ويلتمس بعض الباحثين في هذا المجال مقتربات دلاليّة في ألفاظ تقترب أو تبتعد عن مفردة سيمياء أو مشتقاتها، بهدف الخلوص إلى جذور لفظيّة تؤدي المعنى الاصطلاحيّ الكامن في هذه المفردة، ومن ذلك ما نجده في اللغة الأكديّة، التي تلتقي بالساميّة، وهي لغة لم تعد حيّة بالتأكيد، بيد أنّ المعجمات المعنيّة باللغات القديمة والبائدة، والمفردات التي تبقي عليها المجتمعات اللغويّة بحكم عوامل أنثروبولوجيّة معيّنة، ربما تسعف البحث الفيلولوجيّ في إيجاد مقتربات مفيدة، إذ

نجد أنّ لفظة (شمتو) الأكديّة، تشي بشيء من التشابه مع اشتقاقات مفردة سيمياء، ولاسيّما مع مراعاة استبدال تلك اللغات الساميّة صوت السين المهملة بالشين المعجمة، كما أنّ (شمتو) تعني السمة، والشيمة، وهذه المفردة تمثّل المقابل اللفظيّ لمفردة (نم) السومريّة، التي تستخدم مع لفظة (مي) بقصد تعرّف الخصائص الفاعلة الكامنة في الأشياء بحسب اعتقاد السومريين، وهذه اللفظة السومريّة، ما تزال مستعملة في اللغة العربيّة، و(نم) العربيّة تعني الجوهر والجبلّة والطبع، وعندما تستعمل بصيغة الفعل تؤدّي معنى الكشف والإبانة، وهي بذلك ترادف الكلمات (سمت)، و(شيمة)، و(سمة)، وهنا يتجلّى مدى الاقتراب الدلاليّ واللفظيّ بين المفردات السومريّة والأكديّة، وما نلمسه في المفردات المتداولة في اللغة العربيّة حتى الآن(٢٣).ويمكننا هنا أن نتلمّس بيسر «التشابه الكبير بين (شمتو) الاكديّة، و (شم يه) العبريّة، و (سيمياء) العربيّة، بل إننا إذا أخذنا بنظر الاعتبار وجود هجاء آخر لـ (يه) العبريّة هو (ياه)، وهو (اسم الله) بالهجاء العبريّ الثاني سيكون (شم ياه)، أدركنا مدى التشابه بين المفردتين. ولما كانت هذه الكلمات الثلاث، فضلا عن الكلمة السيريانيّة الرابعة تنتمي إلى فصيلة واحدة كما نعلم، أي إلى اللغات التي اصطلح الفيلولوجيون على تسميتها (اللغات الساميّة)، يصبح سائغاً لنا افتراض أصل ساميّ للفظة (سيمياء)، ولا يبعد أن تكون لفظة (semeion) اليونانية مقترضة من الأكديّة، أو من أيّة لغة ساميّة أخرى»(٢٤).

ومن ثمّ فالسيمياء بمعناها الاصطلاحي عند العرب تخرج من دائرة اللغة التي اقتربنا منها في ما تقدّم، وتدخل في نطاق نوع من أنواع السحر أو هو قسم منه، يعرف بعلم السيمياء وهو ما يطلق على غير الحقيقيّ من السحر، وحاصله إحداث مثالات خياليّة لا وجود لها في الحسّ، وقد يطلق على إيجاد تلك المثالات على صورها

الحسيّة، ويتأتى ذلك من تركيب بعض الخواصّ أو تمزيج الأدهان أو المائعات مع استخدام بعض العبارات والكلمات الخاصّة التي يمكن أن تتسبّب بتأثيرات معيّنة وتستوجب مخيّلات خاصّة، ولكن لا حقيقة لهذا النوع من السحر.(٢٥)

ومنهم من يرى أنّ السيمياء من توابع صناعة السحر مع تأكيد أنّ إحالة الأجسام النوعيّة من صورة إلى أخرى بفعل السيمياء، إنّما تكون بالقوّة النفسيّة التي يستثيرها هذا الفنّ، وليس بالصناعة العمليّة، وهذا ما يجعل السيمياء من قبيل السحر(٢٦).

وعلى الرغم من حصر اصطلاح السيمياء في هذا الجانب الباطنيّ من «العلوم الهيرمسيّة التي يتعاطى أربابها معها لغاية عمليّة هي التأثير في الأمور الطبيعيّة بوسائل غير طبيعيّة لغايات عمليّة»(٢٧)، يلاحظ وجود تباين واختلاف بين المؤلّفين والمؤرّخين الذين تناولوا هذا العلم في مصنّفاتهم، وذلك بسبب الحكم الشرعيّ الذي طال علم السيمياء وحرّمه، حيث تكاد تلك المظان تجمع على هذا الحكم، مختلفة في الوقت نفسه في وضع علم السيمياء موضعه من سائر العلوم المعروفة عند العرب، فمنهم من يرى أنّ السيمياء علم مستقلّ برأسه من العلوم الطبعيّة، وهي الشعبة الثالثة من العلوم وتتضمن الطب والبيطرة والفراسة وتعبير الرؤيا وأحكام النجوم والسحر والطلسمات والسيمياء والكيمياء وأخيرا الفلاحة، مع ملاحظة أنّ ما لا يلزمه مزاج من الأجسام المركّبة فهو علم السيمياء، أو يلزمه مزاج فهو علم الكيمياء، وهذا هو الفرق بين العلمين(٢٨).

ومنهم من يرى أن السيمياء نوع من أنواع العلوم الباحثة عن غرائب التأثير، وهي كثيرة، والقول الكلّيّ في تقسيمها وضبطها عسير جدا، والسيمياء أحدها،

وهو العلم الباحث عن تمزيج القوى الإراديّة مع القوى الخاصّة الماديّة للحصول على غرائب التصرّف في الأمور الطبيعيّة. ومنها أيضا الليمياء وهو العلم الباحث عن كيفيّة التأثيرات الإراديّة باتصالها بالأرواح القويّة العالية كالأرواح الموكلة بالكواكب والحوادث وذلك بتسخيرها أو بتسخير الجنّ مثلا، وهو فنّ التسخيرات. ومنها الهيمياء وهو العلم الباحث عن تركيب قوى العالم العلويّ مع العناصر السفليّة للحصول على عجائب التأثير وهو فنّ الطلّسمات. ومنها الريمياء وهو العلم الباحث عن استخدام القوى الماديّة للحصول على آثارها بحيث يظهر للحسّ أنّها آثار خارقة بنحو من الأنحاء وهو فنّ الشعبذة، وهذه الفنون الأربعة مع فنّ خامس يتلوها وهو الكيمياء الباحث عن كيفيّة تبديل صور العناصر بعضها إلى بعض كانت تسمى عندهم العلوم الخمسة الخفيّة.[٢٩]

إن بعضا من العرب نظر إلى السيمياء بوصفها التسمية المحدثة لعلم معروف لديهم، هو علم أسرار الحروف، «نقل وضعه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرّف (...)، فاستعمل استعمال العامّ في الخاصّ. وحَدث هذا العلم في الملّة بعد صَدرٍ منها، وعند ظهور الغلاة (...) وجنوحهم إلى كشف حجاب الحسّ، وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزّل الوجود عن الواحد وترتيبه. وزعموا أنّ الكمال الأسمائيّ مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، فهي سارية في الأكوان على هذا النظام (...) فحدث لذلك علم أسرار الحروف، وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله (...)، وحاصله عندهم وثمرته تصرّف النفوس الربّانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهيّة الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان»[٣٠].

وبالمتحصّل فإن السيمياء العربيّة التي عرفتها القرون الوسطى حتى الآن لا تتصل من حيث هي اصطلاح، بالسيمياء التي نهدت الدراسات الحديثة إلى اعتمادها مقابلا لمصطلحي السيميوطيقا (Semeiotic) أو السيميولوجيا (Semiology)، اللذين جرى استعمالهما للدلالة على العلم الذي يعنى بحياة العلامات ونظريّتها. وما ورد من مفردات؛ السيمياء والكيمياء والخيمياء وسواها، فلا يعدو أن يكون تنويعا اصطلاحيا ضمن حقل معرفيّ معيّن أسهمت المراحل التأريخيّة المتعاقبة على إيجاده ونحته، وما لبثت أن تخلّت عن كثير من معطياته بحكم التحولات الثقافيّة والفكريّة التي تبسط نفوذها، وهذا ما نرجّحه في سيرورة الحقل المعرفيّ الذي أنتج هذه المصطلحات، ولعلّها اندثرت لصالح مصطلح واحد أو اندغمت فيه، ثم أخذ بعدا معرفيّا وعلميّا مختلفا، وقد يكون هذا المصطلح هو (الكيمياء) بمعناه الحديث، الذي يقوم على تمزيج العناصر، ويبحث في مكوّنات المواد وتفاعلاتها، كما هو معروف الآن.

لقد تبيّن لنا، في ما تقدّم، أنّ اللغة العربيّة وسعت في رحابها (السيمياء) بوصفها مفردة أصيلة تعني العلامة، وتداولتها بمختلف صياغاتها واشتقاقاتها اللفظيّة عبر مدوّنتها التأريخيّة الثقافيّة – الحضاريّة، وفي نصوصها المقدّسة ومتونها الشعريّة والنثريّة. واستوعبت المدوّنة التأريخيّة العربيّة (السيمياء) دالّة على علم أو فنّ بعينه من العلوم أو الفنون الباطنيّة الخاصّة المظنون بها على العامة، لأسباب تتعلق بالموقف الشرعيّ كما ألمحنا.

ولكنّ السؤال الذي يبقى قائما بشأن ما نروم الاشتباك معه في هذه الدراسة، هو هل أسهم العرب في رسم ملامح هذا العلم الذي ابتدعته النظريّة النقديّة الغربيّة

بوصفه علما جديدا يعنى بدراسة العلامات، ونهدت إلى تقصّي أسسه المعرفيّة وأصوله التأريخيّة في تراثها ابتداء من العصر اليونانيّ وحضارته الإغريقيّة مرورا بالعصور الوسطى اللاتينيّة وليس انتهاء ببواكير عصر النهضة والتحوّلات الفلسفيّة والفكريّة التي شهدتها النظريّات الثقافيّة الغربيّة حتّى عصرنا الراهن؟. تحاول هذه الورقة أن تجيب على هذا السؤال الجوهريّ الذي يتقصّى الإسهامة العربيّة في هذا العلم، من دون أن تكون الإجابة تمحّلا، أو قسرا، بوازع من ميل ثقافيّ، أو انتصار ذاتيّ لتراث قوميّ.

إنّ مادة بحثنا إذن، في هذا الموضع، هي التراث(٣١)، وهذا يستدعي حفرا في الموروث الفكريّ العربيّ ولاسيّما في متون علوم القرآن الكريم التي تضمّ علوم الأصول والكلام والفقه والمنطق والتفسير والبلاغة فضلا عن علوم اللغة من نحو وصرف وخطّ، وبالتأكيد فإنّ القرآن الكريم، بحدّ ذاته، متن مهمّ لتقصّي الأبعاد العلاميّة أو السيميائيّة التي مهّدت لفسحة واسعة من التأمّل الفكريّ الموجب لوضع منظومة علميّة يمكن أن تكون الإسهامة العربيّة في نظريّة العلامات.

لقد عرف العرب مفردات وألفاظا كثيرة تعني العلامة غير السيمياء، ومنها (الآية) و(السمة) و(الأمارة) و(الرمز) و(الشارة) و(الإشارة) و(القرينة) و(العرض) و(البيّنة) و(الهيئة) و(الشرط) و(الرسم) و(المنسم) و(المعلم) و(العلم) و(الدليل) و(الدالّة) و(اللائحة) و(الأثر) و(البرهان) و(الشاهد) و(الطرّ) و(الشِيَة) وسواها(٣٢)، ولو نظرنا في ما تقدّمه كتب التفسير في بعض ما يرد في القرآن الكريم من هذه المفردات، لوجدناه مؤشّرا على اهتمام العلماء العرب بهذه الناحية التي يصدق أن تكون علاميّة بالمعنى الدقيق للكلمة، ففي قوله تعالى: وعلامات

وبالنجم هم يهتدون[٣٣]، نجد أنّ العلامة هنا «صورة يعلم بها المعنى من خطّ أو لفظ أو إشارة أو هيئة وقد تكون وضعيّة وقد تكون برهانيّة[٣٤]. وهذا هو التلازم السيميائيّ الذي حدّده فرديناند دوسوسور في ثنائيّته (الدال والمدلول)، فالعلامة سواء أكانت لفظيّة أم غير لفظيّة، تمثّل صورة أو (دالاّ) لما هو معلوم لدينا ذهنيّا، وهو (المدلول) عليه عبر العلامة في الأصل، ولاتوجد مادّة لغويّة إلا من خلال ترابط الدال والمدلول.

وينسحب التصوّر العلاميّ الآنف على كلّ ما يرد في القرآن الكريم من مفردات تدلّ على العلامة أو السمة أو الدليل أو الأثر أو الأمارة، وجميع ذلك متعلّق بالدلالة التي تعني عند العرب «كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأوّل هو الدال، والثاني هو المدلول، وكيفيّة دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النصّ، وإشارة النصّ، ودلالة النصّ، واقتضاء النصّ. ووجه ضبطه أنّ الحكم المستفاد من النظم إمّا أن يكون ثابتاً بالنظم نفسه، أو لا، **والأوّل**: إن كان النظم مسوقاً له، فهو العبارة، وإلاّ فالإشارة، **والثاني**: إن كان الحكم مفهوماً من اللفظ لغة فهو الدلالة، أو شرعاً فهو الاقتضاء، فدلالة النصّ عبارة عما ثبت بمعنى النصّ لغة لا اجتهاداً»[٣٥].

والمراد هنا باللغة التواضع والشيوع، أي يمكن أن يتبيّنه كلّ من يعرف ذلك اللسان بمجرد سماع اللفظ من غير تأمّل وتدبّر.[٣٦] وهذا ما يؤكّد، إلى حدّ بعيد، أنّ العرب نظروا إلى المفردة اللفظيّة بوصفها علامة دالّة، شأنها في ذلك شأن أيّة واقعة أو عرض أو موضوع، وهذا ما دعا الشريف الجرجانيّ في النصّ السابق إلى عدّ الشيء دالاّ على شيء ثان هو المدلول، والشيء الدالّ هو العلامة بصرف النظر

عن ماهيّتها، سواء في ذلك أكانت لفظيّة أم غير لفظيّة، وما يحملنا على هذا الفهم لنصّ الشريف الجرجانيّ تخصيصه تعريفا مستقلاّ للدلالة اللفظيّة – الوضعيّة، فهي عنده «كون اللفظ بحيث متى أطلق أو تُخُيِّل فهم منه معناه، للعلم بوضعه، وهي (الدلالة اللفظيّة الوضعيّة) المنقسمة إلى المطابقة، والتضمّن، والالتزام. لأنّ اللفظ الدالّ بالوضع يدلّ على تمام ما وضع له بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمّن، وعلى ما يلزمه في الذهن بالالتزام، كالإنسان، فإنّه يدلّ على تمام الحيوان الناطق بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمّن، وعلى قابل العلم بالالتزام»[٣٧]. وليس بعيدا عن هذا الفهم أن تكون الدلالة أو الدالّ أصلا «يدلّ على إبانة الشيء بأمارة تتعلّمها، والدليل الأمارة في الشيء»[٣٨].

ولو نظرنا في ما أنتجه علم الدلالة الغربيّ (Semantics) من وعي بهذا الإجراء التحليليّ لقضيّة الدلالة، لاكتشفنا أنّه يتجاوز الشحنة المعنويّة الكامنة في المفردة أو الكلمة، إلى المنظومة المعنويّة التي تفصح عنها الجملة التي هي مجموعة الكلمات الدالّة على معنى محدّد، ومهما تكن دلالة الكلمة المفردة مهمّة، إلا أنّها محكومة بموافقتها لدراسة الدلالة على مستوى التعبير، أي أنّ «الذي سيكون أساسيّا في الدلالة، هو الطريقة التي تترتب (على) وفقها معاني الكلمات لتكوّن معنى جملة ما»[٣٩]. ناهيك عن الوجهة التداوليّة التي تختلف مع المبدأ التقليديّ الذي يقوم على اكتناز المفردة اللغويّة لشحنتها المعنويّة، ويتعدّاها إلى دور المتلقّي في تأويلها، ومنحها قيمتها المعنويّة[٤٠].

وفي ضوء ما تقدّم يكون العرب معنيّين بدلالة الألفاظ انطلاقا من عنايتهم بعلوم اللغة وما يشكّله ذلك من مورد ثقافيّ يقتضيه التوجّه العام عندهم، في

تقصّي أبعاد العلوم الناجمة عن القرآن الكريم بوصفه المركز المعرفيّ الذي تستمدّ منه المعارف الأخرى، «ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أنّ هذا المسموع لهذا المفهوم. فكلّما أورده الحسّ على النّفس التفتت إلى معناه»[٤١]، ومن هذا النزوع اللغويّ عند العرب وعلى مختلف قرون عطائهم الفكريّ الذي تشكّل في القرن الثالث الهجريّ وما أعقبه من قرون حتى سقوط بغداد على أيدي المغول في القرن السابع، وربّما بعد ذلك أيضا، استمرّ التكريس الفكريّ اللغويّ نفسه، آخذا شكلا أفقيّا – نسقيّا، على الرغم من سعة التلاقح التي أفادت منها الثقافة العربيّة، حيث أخذت من الثقافات الأخرى، بما فيها اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة، وتعرّفت علومها وفنونها وشؤونها الثقافيّة المختلفة، ومن بين ما عرفته في هذه المدّة الزمنيّة الطويلة؛ الفلسفة والمنطق وأنواع الأدب القصصيّ والحكميّ وسوى ذلك من أمور الطب والفلك والهندسة والعمارة والرياضيات... إلخ، وهو ما يتجلّى من حجم الآثار التي نقلت إلى العربيّة، والترجمات التي قدّمت فيها الشروح والحواشي والمطوّلات.

وعلى الرغم من ذلك كله حُكم الفكر العربيّ بأن يدور في فلك اللغة التي أخذت لدى العرب بعدا ثقافيّا خاصّا لارتباطها الجوهريّ بالمقدس، وهذا التقديس ـ الذي تمثّل في الموقع الذي يحتلّه القرآن الكريم والمكانة التي حازها لديهم، بوصفه الدستور ومصدر التشريع والمعجز، ولاسيّما في متنه البيانيّ اللغويّ، وهو كما أشرنا الباعث الأوّل والداعي إلى إيجاد العلوم العربيّة التي شكّلت بمجملها مؤسسة علوم القرآن في الثقافة العربيّة – الإسلاميّة.

أقول: هذا التقديس انسحب على اللغة العربيّة نفسها على الرغم من تداولها

من حيث هي لغة تواصل في زمن أسبق من تداول القرآن الكريم، وقد يكون هذا التقديس هو السبب الرئيس في ثبات اللغة العربيّة واستمرارها على وفق ما تشكّلت به، على مدى أكثر من ألف وخمسئة عام.

وبالعودة إلى دلالة الألفاظ فإنّ العرب بسبب ما أشرنا إليه، يرون أنّ «استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعيّة مفردة ومركّبة (...) ثمّ إنّ هناك استفادات أخرى خاصّة من تراكيب الكلام، فكانت كلّها من قواعد هذا الفن، ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغويّة»[٤٢]، فاللغة عندهم هي المجال الذي تدور فيه العمليّة الدلاليّة برمّتها، سواء ما كان من اللغة ملفوظا أم مكتوبا، «فللأمور وجود في الأعيان، ووجود في النفس يكوّن آثارا في النفس. ولمّا كانت الطبيعة الإنسانيّة محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة، انبعثت إلى اختراع شيء يتوصّل به إلى ذلك (...) فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت، ووفّقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا، ليُدلّ بها على ما في النفس من أثر. ثمّ وقع اضطرار ثان إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان، أو من المستقبلين إعلاما بتدوين ما علم (...) فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق، فاخترعت أشكال الكتابة»[٤٣].

وبعد فالدلالة عند العرب هي المبحث العلاميّ الذي يقابل المباحث السيميائية الحديثة، ويكاد يتطابق معها من حيث الإجراء، مع احترازنا في كون مفهوم الدلالة عند العرب يختصّ من حيث الاصطلاح بالجانب اللغويّ لفظا وكتابة، وهذا ما يقرّبه من السيمانطيقا (Semantics)، أو علم الدلالة الغربيّ إلى حدّ كبير، ويخرجه من السيميائية = السيميوطيقا (Semeiotic) أو السيميولوجيا (Semiology)،

على الرغم من تنبّه العرب الأكيد والدقيق على الفرق الكامن في مفردتي (علامة) و (دلالة) على المستوى اللغويّ، «إنّ الدلالة على الشيء ما يمكّن كلّ ناظر فيها أن يستدلّ بها عليه كالعالم لما كان دلالة على الخالق كان دالاّ عليه لكلّ مستدل به، وعلامة الشيء ما يعرف به المعلّم له، ومن شاركه في معرفته دون كلّ واحد، كالحجر تجعله علامة لدفين تدفنه، فيكون دلالة لك دون غيرك، ولا يمكن غيرك أن يستدلّ به عليه إلاّ إذا وافقته على ذلك،(و) كالتصفيق تجعله علامة لمجيء زيد، فلا يكون ذلك دلالة إلاّ لمن يوافقك عليه، ثم يجوز أن تزيل علامة الشيء بينك وبين صاحبك، فتخرج من أن تكون علامة له، ولا يجوز أن تخرج الدلالة على الشيء من أن تكون دلالة عليه، فالعلامة تكون بالوضع والدلالة بالاقتضاء»[٤٤].

بل إنّ اللغويين من العرب أفسحوا في المعنى للدلالة مسقطين خصيصة القصد عنها، وهي الخصيصة التي أثبتها أهل الاصطلاح من مناطقتهم، فالدلالة إذن ما يمكن أن يستدلّ به، سواء أقصد فاعله أم لم يقصد، والشاهد على ذلك أفعال البهائم التي تدلّ على حدثها، على الرغم من انعدام القصد، كما أنّ الأفعال المحكّمة دلالة على علم فاعلها، وإن لم يقصد فاعلها أن تكون دلالة على ذلك، ولا حجيّة في انعدام القصد حين يكون أثر اللصّ، مثلا، دليلا عليه، وليس ذلك بمنكر في اللغة، ومن بابه قولهم: «قد دلّ الحارب على نفسه بركوبه الرمل»[٤٥].

....

١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور الأنصاريّ، تحقيق: عبد الله علي الكبي، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ صدور، مادة سوم، ج١٢، ص ص٣١١ - ٣١٢.

٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور الأنصاريّ، مصدر سابق، مادة سوم، ج ١٢، ص ص٣١١

- ٣١٢.

٣) البقرة، من الآية ٢٧٣.

٤) الأعراف، من الآية ٤٦.

٥) الأعراف، من الآية ٤٨.

٦) محمّد، من الآية ٣٠.

٧) الفتح، من الآية ٢٩.

٨) الرحمن، من الآية ٤١.

٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ، تحقيق: هاشم الرسوليّ المحلاتيّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، مج ٥، ج ٢٦، ص١٢٧.

١٠) المصدر السابق نفسه، مج ٢، ج٨، ص٤٢٢.

١١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الآملي الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ٢٠٠٠، ج٥، ص٥٩٤.

١٢) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، مج ٥، ج٢٦، ص١٢٧.

١٣) هود، الآية ٨٣.

١٤) الذاريات، الآية ٣٤.

١٥) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، مج ٣، ج١٢، ص ص ١٨٣-١٨٥.

١٦) ينسب البيتان لأسيد بن عنقاء الفزاري ضمن أبيات في مديح عميلة بن كلدة الفزاري، ويروى صدر البيت الأول (غلام رماه الله بالخير كله)، في قول من عاب على المبرّد الرواية الأولى، وذلك أن الحسن يولد مع الشخص ولا يمكن أن يعطاه لاحقا كالمال. وقد ذكرهما ابن منظور في لسان العرب، مصدر سابق، مادة سوم، ج١٢، ص٣١٢.

١٧) البيت من قصيدة للنابغة الجعدي، ينظر: ديوان الجعدي، جمع وتحقيق: عبد العزيز رباح، المكتب الاسلامي للنشر، مكة المكرّمة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ص ص ٨٥ - ٩٦.

١٨) البيت لعبد الله بن رواحة، الديوان، جمع وتحقيق، وليد إبراهيم قصّاب، دار الضياء، عمّان، ط٢، ١٩٨٨، ص٢١٦.

١٩) البيت لساعدة بن جؤية الهذليّ، أورده ابن منظور في لسان العرب، مصدر سابق، مادة حسب، وينظر أيضا: ديوان الهذليين، القسم الأول، بعناية أحمد الزين، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥، ص٢٢٩.

٢٠) ينظر: مفهوم العلامة عند الجاحظ، جمال عبد اللطيف العميدي، رسالة ماجستير، مقدمة إلى قسم اللغة العربيّة في كليّة التربية، جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ الدكتور ناصر حلاّوي، مرقونة بالكومبيوتر، ١٩٩٨، ص٦.

٢١) ينظر: موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبري زاده، تحقيق: د.علي دحروج بإشراف: د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٨، مادة سيمياء، ص٤٨٩، كما ينظر: للمزيد، السيمياء، مدخل فيلولوجي، بحث للدكتور يوسف إسكندر ضمن كتاب مخطوط، اطلع الباحث على بعض فصوله، ويذكر فيه أنّ أقدم إشارة إلى كون مفردة سيمياء ذات أصل عبراني هو ما ورد في احدى رسائل البيضاوي صاحب التفسير، بحسب ما أثبته محمود الآلوسي في تفسيره: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ج ١٦، ص ٢٢٧.

٢٢) دائرة المعارف الاسلاميّة، تحرير: د. ب. مكدونالد، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد، ط١، ١٩٣٥، ج٢٠، ص ١٣، وينظر أيضا، مفهوم العلامة عند الجاحظ، مصدر سابق، حيث يعترض الباحث جمال عبد اللطيف على محرر دائرة المعارف توسيط اللغة اليونانيّة بقوله «ولسنا ندري لماذا يقترح (مكدونالد) توسّط اليونانيّة بين السيريانيّة والعربيّة، علماً أنّ الأخيرتين لغتان من فصيلة واحدة، لذا يصبح التشابه في المفردات أمراً متوقّعاً ومسوّغاً لا يحتاج إلى تكلّف وجود لغة وسيطة، خاصة حين تنتمي هذه الأخيرة إلى فصيلة لغويّة أخرى»، وهو اعتراض وجيه بالتأكيد، بيد أنني أرجّح أن تشترك لغات عديدة في بعض المفردات، ومنها السيمياء التي نجدها في اليونانيّة والسيريانيّة والعربيّة والعبريّة وكذلك نجد لها مشابهات لفظيّة في اللغات البائدة ومنها الأكديّة على مايبدو، وعليه فليس من داع لالتماس لغات وسيطة في تداول هذه المفردة في جميع هذه اللغات.

٢٣) ينظر: البنية الذهنيّة الحضاريّة في الشرق المتوسطيّ الآسيويّ القديم، يوسف الحوراني، دار النهار للنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٨، ص ص ١١٩-١٢٠.

٢٤) مفهوم العلامة عند الجاحظ، مصدر سابق، ص١٩.

٢٥) ينظر: موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، مصدر سابق، ص ٤٨٩، وينظر أيضا: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، اعتنى بنشره: محمّد شرف الدين بالتقايا و رفعت بيلكة الكليسي، ط٤، ١٩٤١، بيروت، ج٢، ص١٠٢٠.

٢٦) ينظر: أبجد العلوم، صدّيق بن حسن تاقنوجي، نشرة دار الإيمان، بيروت، ٢٠٠٠، ج٢، ص٣٢١.

٢٧) السيمياء، مصطلحا وتأريخا وموضوعا واتجاهات، د. يوسف إسكندر، مجلة كليّة الآداب،

جامعة بغداد، ع٨٦، ٢٠٠٨، ص ص٧٤-٩٨.

٢٨) ينظر: أبجد العلوم، مصدر سابق، ج٢، ص ص١٤ - ١٥.

٢٩) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائيّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، ط١، قم المقدسة، ١٤١٢، ج١، ص ٢٤٤.

٣٠) المقدمة، ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، بعناية: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص٦٦٤.

٣١) يختصّ هذا الموضع من الدراسة بالمصطلحات المشتركة في المباحث السيميائيّة العلاميّة والدلاليّة والتأويليّة، ومنها ما استعمله العرب في متونهم النقديّة واللغويّة.

٣٢) ينظر: نجعة الرائد، إبراهيم اليازجي، مكتبة لبنان للنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٥، فصل في العلامات والدلائل، ص٤٣٦.

٣٣) النحل، الآية ١٦.

٣٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، مج٣، ج١٤، ص٣٥٣.

٣٥) كتاب التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص١٣٩.

٣٦) المصدر السابق نفسه.

٣٧) كتاب التعريفات، مصدر سابق، ص١٤٠.

٣٨) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، مادة (دلّ)، ج٢، ص٢٥٩.

٣٩) علم الدلالة، كلود جرمان و ريمون لوبلون، ت: د. نور الهدى لوشن، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ط١، ١٩٩٧، ص٣٠.

٤٠) مقدّمة ابن خلدون، مصدر سابق، ص٤١٩.

٤١) كتاب العبارة، من كتاب الشفاء، ابن سينا، مصدر سابق، ص٦.

٤٢) الفروق اللغويّة، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٨، ص ص٧٠ - ٧١.

٤٣) ينظر: المصدر السابق نفسه، ص٦٨، والحارب هو الذي يسلب غيره، والمراد أنه يمضي من دون أن يعتني بإخفاء أثره على الرمل، مما يجعل اقتفاء أثره والظفر به ممكنا.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١) أبجد العلوم، صدّيق بن حسن تاقنوجي، نشرة دار الإيمان، بيروت، ٢٠٠٠.

٢) البنية الذهنيّة الحضاريّة في الشرق المتوسطيّ الآسيويّ القديم، يوسف الحوراني، دار النهار للنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٨.

٣) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الآملي الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ٢٠٠٠.

٤) دائرة المعارف الاسلاميّة، تحرير: د. ب. مكدونالد، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد، ط١، ١٩٣٥.

٥) ديوان الجعدي، جمع وتحقيق: عبد العزيز رباح، المكتب الاسلامي للنشر، مكة المكرّمة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٦) ديوان عبد الله بن رواحة، جمع وتحقيق، وليد إبراهيم قصّاب، دار الضياء، عمّان، ط٢، ١٩٨٨.

٧) ديوان الهذليين، القسم الأول، بعناية أحمد الزين، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥.

٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩) السيمياء، مصطلحا وتأريخا وموضوعا واتجاهات، د. يوسف إسكندر، مجلة كليّة الآداب، جامعة بغداد، ع٨٦، ٢٠٠٨.

١٠) علم الدلالة، كلود جرمان و ريمون لوبلون، ت: د. نور الهدى لوشن، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ط١، ١٩٩٧.

١١) الفروق اللغويّة، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٨.

١٢) كتاب التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

١٣) كتاب العبارة، من كتاب الشفاء، الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا، الهيئة المصريّة العامّة، القاهرة، ط١، ١٩٧٠.

١٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، اعتنى بنشره: محمّد شرف الدين بالتقايا و رفعت بيلكة

الكليسي، ط٤، ١٩٤١، بيروت.

١٥) لسان العرب، ابن منظور الأنصاريّ، تحقيق: عبد الله علي الكبي، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ صدور.

١٦) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ، تحقيق: هاشم الرسوليّ المحلاتيّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان.

١٧) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.

١٨) مفهوم العلامة عند الجاحظ، جمال عبد اللطيف العميدي، رسالة ماجستير، مقدمة إلى قسم اللغة العربيّة في كليّة التربية، جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ الدكتور ناصر حلاّوي، مرقونة بالكومبيوتر، ١٩٩٨.

١٩) المقدمة، ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، بعناية: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١.

٢٠) موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبري زاده، تحقيق: د.علي دحروج بإشراف: د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٢١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائيّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، ط١، قم المقدسة، ١٤١٢.

٢٢) نجعة الرائد، إبراهيم اليازجي، مكتبة لبنان للنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٥.